(سوّى) ومشتقاتها في القرآن الكريم

(دراسة معجمية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

موقع رحى الحرف

(سوّى) ومشتقاتها
في القرآن الكريم
(دراسة معجمية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

موقع رحى الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

(سوّى) ومشتقاتها ، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

الفهرس: ٣
مقدمة: ٦
خلاصة الدلالات: ٧
مقدمة: دلالة (س و ى) في اللغة ٨
(س و ى) في المعاجم: ٨
التحقيق في الدلالة اللغوية لـ(س و ى): ٩
(١) تركيب: [سَوِي فهو سَوِيّ] ١١
صراط سوي: ١١
بشر سوي: ١٢
ثلاث ليال سويا: ١٢
(٢) تركيب: [استوى] ١٣
بلغ أشده واستوى: ١٣
ذو مرة فاستوى: ١٥
(٣) [يستويان - سواء] ١٨
يستويان: ١٨
(سواء)، ١٩
١/ سواء كذا أم كذا ١٩
٢/ سواء كذا وكذا ٢٠
٣/ (هم) سواء، مجيؤها خبرا. ٢٠
٤/ مجيؤها صفة ٢٢
كلمة سواء: ٢٢
فانبذ إليهم على سواء: ٢٢

مكانا سوى: ٢٣
٥/ مجيؤها مضافة ٢٤
سواء الجحيم: ٢٤
سواء السبيل: ٢٤
سواء الصراط: ٢٥
٦/ (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) ٢٦
تخريج العلماء للآية: ٢٦
نقد التخريجات السابقة: ٢٨
الوجه في تخريجها: ٢٩
(٤) تركيب: [استوى إلى] ٣٢
(٥) تركيب: [استوى على] ٣٥
استوت على الجودي: ٣٥
فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك: ٣٦
لتستووا على ظهوره: ٣٦
فاستوى على سوقه: ٣٧
ثم استوى على العرش: ٣٨
(٦) تركيب: [سوّى] ٤٣
أولا: تسوية الشيء [سوّى الشيءَ] ٤٥
خلق فسوى: ٤٥
(تسوية الإنسان) ٤٦
أ/ نفخ الروح: ٤٧
ب/ تسوية الصورة: ٤٩
ج/ تسوية النفس: ٥٠
خلاصة آيات تسوية الإنسان: ٥١

(نسوي بنانه) ٥٣

(تسوية السماء) ٥٥

(تسوية السماوات السبع) ٥٦

ثانيا: تسوية الشيء بالشيء ٥٨

إذ نسويكم برب العالمين: ٥٨

لو تسوى بهم الأرض: ٥٩

فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها: ٦٢

(٧) تركيب: [ساوى] ٦٤

حتى إذا ساوى بين الصدفين: ٦٤

مقدمة:

هذا البحث يدرس جذر (سوى) ومشتقاتها في القرآن الكريم. وقد بدأ ببيان الدلالة العامة للجذر. ثم بينت الصيغ التي ورد فيها اللفظ، وهي: سوِي، واستوى، وسوّى، وساوى. ودرست الآيات في كل صيغة.

أسأل الله الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى، ألا يردنا إلى أسفل سافلين، وألا ينكسنا في الخلق.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

جمادى الثانية – ١٤٣٤هـ / أبريل ٢٠١٣م

abdmmys81@hotmail.com

خلاصة الدلالات:

جذر (س و ى):

يدل على: مماثلة شيئين، متباينين، أحدهما مقياس للآخر.

(استوى استواء):

انتقل إلى حالة (مثال) بالنسبة إلى حالة سابقة مباينة لها.

(سوّى):

نقل الشيء المقيس إلى مستوى الشيء المقيس عليه، ليستويا. فالفاعل يُلحق أحد الشيئين بالآخر.

تسوية الخلق:

إتمام الخلق وفقا لما قُدّر له أن يكون، بحيث يأخذ خصائصه التي تميزه عن غيره.

□

مقدمة: دلالة (س و ى) في اللغة

(س و ى) في المعاجم:

قال في الصحاح: (السَواءُ: العدلُ. وسواء الشئ: وسطه. واستوى على ظهر دابته، أي علا واستقر. واسْتَوى إلى السماء، أي قَصَدَ. واستوى الشئ: اعتدل. والاسم السَواءُ).

وفي مقاييس اللغة: (السين والواو والياء أصل يدل على استقامة واعتدال بين شيئين. يقال هذا لا يساوي كذا، أي لا يعادله. وفلان وفلان على سوية من هذا الأمر، أي سواء).

وقال الراغب في المفردات: (الْمُسَاوَاةُ: المعادلة المعتبرة بالذّرع والوزن، والكيل، يقال: هذا ثوب مُسَاوٍ لذاك الثّوب، وهذا الدّرهم مساو لذلك الدّرهم، وقد يعتبر بالكيفيّة، نحو: هذا السّواد مساو لذلك السّواد، وإن كان تحقيقه راجعا إلى اعتبار مكانه دون ذاته... وتَسْوِيَةُ الشيء: جعله سواء، إمّا في الرّفعة، أو في الضّعة).

وسأبين أقوال أهل اللغة في بقية تركيبات (سوى) أثناء بحثي في كل تركيب.

□

التحقيق في الدلالة اللغوية لـ(س و ى):

جذر (س و ى)، يدل على: **مماثلة شيئين، متباينين، أحدهما مقياس للآخر.**

وسأبين هذه الدلالة على مختلف التركيبات الواردة في القرآن الكريم.

وقد جاء جذر: س و ى، في القرآن الكريم، في التراكيب التالية: سوِيَ، واستوى، وسوّى، وساوى. فأما (سوِيَ، واستوى) فهما فعلان لازمان، وأما (سوّى، وساوى) فهما فعلان متعديان.

استوى الشيءُ: أصبح مثل شيءٍ مباين له، وقيس عليه.

وسوّى الشيءَ: جعله مستويا مع شيءٍ آخر مباين له، وقيس عليه.

وبتتبع مشتقات الجذر (س و ى)، والتراكيب اللغوية المختلفة الواردة في اللغة العربية، نجد أنه يتميز بأربع خصائص دلالية، هي: [المماثلة، وجود شيئين، أحدهما مقياس للآخر، مع ملاحظة التباين السابق بينهما]:

١. المماثلة، سواء بالإثبات أو النفي، نحو: سواءٌ البعيدُ والقريبُ، ونحو: لا يستوي الأعمى والبصير. وقد تكون المماثلة مقدرة، نحو (صراط سوي) أي: مستقيم، فنفى مماثلة الاستقامة بالعوج، ونحو: سواء السبيل، أي وسطه، والوسط هو نقطة التقاء طرفين يتماثلان إلى تلك النقطة.

٢. وجود شيئين في دلالته، سواء أظاهرين كانا، مثل: لا يستوي الأعمى والبصير، أو مقدرين، مثل: (سواء الطريق)، أي: وسطها، لاستواء المسافة إليها من الأطراف، فالشيئان المقدران هم الطرفان. وسواء أشيئين كانا أم حالتين، أم مكانين، أم زمانين... الخ. وفي تركيب (استوى) غالبا ما يذكر الشيئان في نحو: لا يستوي الأعمى والبصير، ويقدر المقيس عليه في نحو: بلغ أشده واستوى، ونحو: استوى إلى السماء، [كما سأبين دلالته]. وفي تركيب (سوى) غالبا ما يقدر الشيء المقيس عليه، نحو: (خلقك فسواك)، وقد يذكر، نحو: (إذ نسويكم برب العالمين).

٣. أحد الشيئين يكون مقياسا (أو نموذجا، أو معيارا، أو مثالا)، والشيء الآخر يقاس إليه. فنحو: لا يستوي الأعمى والبصير، البصير هو الشيء المثال أو النموذج أو المعيار، وقيس عليه الأعمى، ومن ثم تم نفي هذه النسبة، ونحو: هل يستوون مثلا؟ وكونه مقياسا يشمل الرفعة والضعة، نحو: استوى قاسم وحسن في سوء الخلق.

٤. دلالة التباين السابقة، وانتقال الشيء المقيس إلى حالة المقيس عليه (النموذج)، فنحو: استوى زيد وعمرو، يدل على أنهما لم يكونا كذلك من قبل، فمن قبل كان ثمة تباين بينهما.

وبهاتين الدلالتين تفسر كل تراكيب (س و ى).

وهذه بعض الآيات، وسأبين بها تلك الدلالة

□

(١) تركيب: [سَوِي فهو سَوِيّ]

صراط سوي:

(صراط سوي): مستقيم لا يميل إلى جهة دون أخرى، فلا إفراط فيه ولا تفريط، فالإفراط والتفريط يمثلان الاعوجاج في الصراط، والاعوجاج يباين الاستقامة، فـ(الصراط السوي) ينفي التماثل بين هذين الشيئين المتباينين: الاعوجاج والاستقامة، والاستقامة هي المقياس.

وقد اطرد وصف (الصراط) في القرآن الكريم بـ(المستقيم): الصراط المستقيم، وفي بعض المواضع جاء وصفه بـ(سوي): الصراط السوي. ووصف أولئك الذين لا يتبعون الصراط السوي بأنهم ناكبون، أي مائلون عن وسطه (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ).

وقال تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فـ(يمشي سويا)، جاءت مقابل: يمشي مكبا، فهما حالتان متقابلتان، وهذا يفسر الاهتداء في قوله: (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى)، أي: ومن اهتدى لأن يمشي سويا عليه.

كما وصف الناكبون أيضا بالملحدين، قال تعالى: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)، وقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)، والملحد هو من يميل عن الوسط المستقيم. قال ابن فارس: (اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة. يقال: ألحد

الرجل، إذا مال عن طريقة الحق والإيمان. وسمي اللّحْد لأنه مائل في أحد جانبي الجدَث).

بشر سوي:

(بشر سوي)، في قوله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)، أي: بشرا سويا في بشريته، ولا يبدو عليه شيء من صفات الملائكية، فقوله (سويا) وصف يحترز به من توهم أن الروح تمثل لها بشرا وفيه بعض خصائص الملائكة، كالطيران وغيره، وقد يحدث هذا التوهم من قوله (فتمثل لها)، وهذا يدل على أنه دخل إليها كما يدخل إليها أي بشر، فخصائصه أمام مريم تغيرت تماما إلى الخصائص البشرية. فاللفظ هنا وازن بين حالتين: حالة البشرية وحالة الملكية، وكانت حالية البشرية مقياسا لتمثل الروح فيها، فهي حالة بشرية خالصة.

ثلاث ليال سويا:

وقوله: (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)، فسرها الزجاج، بأن (سويا) حال من ضمير المخاطب، أي: تمنع الكلام وأنت سوي لا أخرس. وتفسيره أولى ممن فسرها بأنها صفة لـ(ليال)، أي: ثلاث ليال تامة، فالمخاطَب يهتم بحالته أكثر من تمام الليالي أو نقصها، فهو يخبره أنه سيمنع الكلام وهو سوي وليس عن خرس، وهذه هي آيته، فيعرف بعدها مجيء الولد. كما أن الأيام والليالي لا يوصف كمالها بالاستواء، بل بالكمال أو التمام. ولذلك مزيد بيان عند قوله (سواء للسائلين).

(٢) تركيب: [استوى]

(استوى) جاءت في القرآن الكريم على أربعة استخدامات،

١. استوى.

٢. يستويان، سواء.

٣. استوى إلى.

٤. استوى على.

الأول: (استوى) وفاعلها مفرد واحد غير معطوف، وهذه لم تأت إلا بصيغة الماضي، وقد جاءت في موضعين، قوله تعالى في سورة القصص (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، وقوله تعالى في سورة النجم: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى).

بلغ أشده واستوى:

فأما آية القصص فتتحدث عن موسى عليه السلام، فبلوغ الأشد، يعني: بلوغه مرحلة القوة، وهي المرحلة التي تأتي بعد الضعف (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً)، فمرحلة الضعف هي مرحلة الطفولة، ثم تأتي مرحلة القوة ببلوغ الإنسان، وتستمر معه حتى الشيخوخة (وهي مرحلة الضعف والشيبة).

وقد قال تعالى عن يوسف: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)، (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)، (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا

وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا)،

فكلها تدل على أن بلوغ الأشد هو مرحلة القوة، وهي بلوغ الإنسان، حيث تحدث كثير من التغييرات في جسمه ونفسه وعقله، ويمنحه الله قوى عدة، تناسب دوره ومسؤوليته في الحياة. وفي قوله (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ)، دل على أن بلوغ الأربعين يمثل مرحلة فارقة بالنسبة إلى بلوغ الأشد، وبعد ذلك يبدأ الإنسان في مرحلة الضعف والشيبة، فالآية تعني أنه يبر بوالديه ويشكر ربه حين يبلغ أشده وحين يبلغ الأربعين أيضاً وما بينهما، ولا تأخذه نشوة السباب فتلهيه أو تطغيه.

وأما لفظ (واستوى) فلم يرد إلا مع موسى عليه السلام، ولم يرد في مختلف الآيات التي تحدثت عن المراحل العمرية، وهذا يدل على أن (استوى) لا تعني مجرد بلوغ مرحلة عمرية، بل لها دلالة خاصة، لا تتعلق فقط بالعمر. جاء في قصة موسى بعد هذه الآية قصته حين دخل المدينة ووجد رجلين يقتتلان أحدهما من شيعته والآخر من عدوه، فوكز عدوه فقضى عليه، ثم قصته مع الفتاتين، حيث سقى لهما، ثم عمله مع الشيخ الكبير، حتى قضى الأجل وسار بأهله. وكل هذه لم تذكر إلا في سورة القصص، وهذا يدل على أن لها صلة بـ(استوى).

وبالعودة إلى دلالة (س و ى)، نجد أن قوله (واستوى) تدل على أنه **انتقل إلى حالة (مثال) بالنسبة إلى حالة سابقة مباينة لها**. وانتقال الإنسان من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوة سماه القرآن الكريم في ستة مواضع: بلوغ الأشُدّ (وبلغ أشده)، فدل على أن (استوى) ليست بلوغ الأشد، كما أن بلوغ الأربعين سماه القرآن كذلك، وقد جاء عطف (واستوى) بالواو على (بلغ أشده)، فيدل على أنه يتحدث عن أمرين: عن المرحلة الزمنية التي بلغها (بلغ أشده)، وعن حالة من القوة والمسؤولية ليست عند نظرائه ممن بلغوا أشدهم، فهو (استوى)، أي انتقل من حالة الضعف وغير المسؤولية إلى حالة القوة والمسؤولية، في هذه المرحلة العمرية المبكرة [وغيره قد لا يبلغها إلا في مرحلة لاحقة من عمره]. ودل على ذلك القصص التي ذكرها بعد، والتي تبين عن مدى المسؤولية التي تحملها، والقوة التي أوتيها.

ذو مرة فاستوى:

وأما آية النجم فهي تتحدث عن جبريل عليه السلام، وهو الذي كان ينزل بالوحي، فهي تثبت رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لجبريل، وتلقيه عنه، وأن الرسول ما ضل وما غوى في ذلك، بل عاينه وتلقى عنه حقيقة. فقال: (عَلَّمَهُ) أي: أنزل القرآن عليه، (شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ): أي أن جبريل عليه السلام لديه القوى الشديدة التي خلقه الله بها لتساعده في إنجاز مهامه، ومنها الوحي، فهو ذو

قوى شديدة وليست قوة واحدة، وقوله (ذو مرة)، أي أن هذه القوى الشديدة مستجمعة مترابطة غير منقوضة، وبجميعها يستطيع القيام بمهامه. والعرب تقول للحيل إذا أحكم ربطه (مِرّ)، ويقولون: أمرّ الحبلَ يُمِرّه: إذا فتله فتلا شديدا، ويقابل ذلك: نقضه. ففي الآية يتحدث عن قوى شديدة عديدة قد ترابطت واستجمعت فيه، فهو ذو مِرّة.

ثم قال (فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى)، كما بينت دلالة (استوى)، انتقل إلى حالة مثال بالنسبة إلى حالة سابقة عليها. فالحالة السابقة هي الحالة التي خلقه الله عليه (شديد القوى ذو مرة)، وهي حالة تناسب أن يقوم بمهامه فينزل بالوحي من رب العالمين إلى الأرض فيخترق السماوات كلها حتى يصل إلى الأرض.

وهذه الحالة تناسب حالة انطلاقه من فوق السماوات إلى أن يصل إلى الأفق الأعلى للأرض، وحينئذ ثمة حالة أخرى تناسبه ليخترق أفق الأرض، فقال: (فاستوى وهو بالأفق الأعلى)، أي: انتقل إلى حالة خاصة حين بلغ الأفق الأعلى، ولم يرد الأفق في القرآن الكريم إلا مرتبطا بسماء الأرض، وذكر هذه الحالة بعد الحالة السابقة (شديد القوى ذو مرة)، يبين مباينتها لها، فهي حالة أقرب ما تكون إلى الحالة البشرية، كما قال (فتمثل لها بشرا)، ويدل على هذا قوله بعدها (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى)، أي بعد أن استوى وهو بالأفق الأعلى للأرض دنا من الأرض فتدلى، أي كان في حالة يشبه حالة من يتعلق بالسقف، فهنا يصف حركته حين يدخل الأرض، وهذه الحركة تبين أن ثمة تغييراً في سرعة حركته وطبيعتها، هي أقرب ما تكون

إلى حركة ذات طبيعة بشرية، وهي التعلق من السقف. كما أن الآية تبين أن أفق الأرض كالسقف لها، فهو يتدلى منه.

فحالة الاستواء التي انتقل إليها هي حالة مثال بالنسبة إلى البشر، ولذلك قال (فكان قاب قوسين أو أدنى)، وهذا يدل على غاية الاقتراب، وأنه قد تحول إلى حالة بشرية تتيح له أن يكون على هذه المسافة من رجل بشري، ولو كان بحالته السابقة لما تيسر ذلك. والله أعلم.

□

(٣) [يستويان – سواء]

يستويان:

والاستخدام الثاني: (استوى) وفاعلها إما مثنى أو مفردان معطوف أحدهما على الآخر، وهذه لم تأت إلا بصيغة المضارع، وقد جاءت في سبعة عشر موضعا، ولم تأت إلا منفية بـ(لا)، أو (ما)، أو (هل) الدالة على النفي. كقوله: (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ)، وقوله: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ)، وقوله: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)، وقوله: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ).

والدلالة هنا واضحة، فهو ينفي التماثل بين شيئين، حيث إن أحدهما يعد مقياسا للآخر، ودل النفي على أنه مقياس يقتضي التباين التام سابقا ولاحقا، أي: هما متباينان وسيظلان متباينين، ولا يمكن أن يستويا.

□

(سواء)،

وأما (سواء) فهي اسم فاعل لـ(يستوي)، بمعنى: (مستوي)، ولا داعي لتأويلها بالمصدرية، فهي تقوم مقام الفعل المضارع دلالة وتركيباً. كقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، أي: مُستوٍ عليهم الأمران، وقوله (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ)، مستوٍ منكم الأمران، وقوله: (لَيْسُوا سَوَاءً)، أي: ليسوا مستوين.

واطرد استخدام القرآن الكريم للفعل (يستوي) في حال النفي [أي: نفي استواء الأمرين]، ويستخدم (سواء) في حال الإثبات [أي: إثبات استواء الأمرين].

وتراكيبها الواردة في القرآن الكريم، هي:

١/ سواء كذا أم كذا

كقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، ويأتي بعدها فعلان ماضيان، أولهما مسبوق بهمزة الاستفهام، والآخر بـ(أم)، وتقترن بها (على)، ولم تأت إلا في مقام الذم، وجاءت في ستة مواضع. والموضع السابع قوله: (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ)، حيث تقدم الفعل بصيغة الأمر. والمعنى: يستوي الأمران في الحكم. فهي تأخذ دلالة (يستوي)، وقد سبق الحديث عنها.

والأمران المذكوران مع (سواء) يكونان متباينين، والمتكلم يبين أنه بالرغم من تباينهما فإنهما مستويان في الأثر، فقوله مثلا: (سَوَاءٌ

عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)، يبين أن الاستغفار وعدمه (وهما شيئان متباينان) سواء في أثرهما، فلن يؤديا إلى نتيجة (فلن يغفر الله لهم).

٢/ *سواء كذا وكذا*

وجاءت في ثلاثة مواضع، قوله: (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)، وقوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)، و(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ). فيأتي بعدها اسمان مرفوعان، والثاني معطوف على الأول. والمعنى: يستوي الأمران في الحكم، والأمران متباينان كما أوضحت في التركيب الأول.

٣/ *(هم) سواء، مجيؤها خبرا.*

كقوله: (لَيْسُوا سَوَاءً)، و(فَتَكُونُونَ سَوَاءً)، و(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)، و(فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ). والمعنى في كل ذلك: الاستواء بين فريقين متباينين، أي: فهم مستوون. [سواء بالإثبات أو النفي]. ومن هذا الباب قوله تعالى (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ). وسأبينها بعد قليل.

فقوله: (لَيْسُوا سَوَاءً)، ينفي استواءهما، فهم فريقان متباينان.

وقوله: (فَتَكُونُونَ سَوَاءً) أي فتصبحون مستوين، ولا يكون بينكم تبان.

□

٤/ مجيؤها صفة

كلمة سواء:

وذلك ﰲ قوله: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)، أو صفة مقدرة (على سواء)، ﰲ قوله: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)، و(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ).

وقد فسرها المفسرون والمعاجم بأنها بمعنى: عدل ونصفة، وهذا تفسير بالمعنى، أما دلالته الدقيقة وفقا للجذور، فهي: مستوية، أو نقول تجوزا: وسط. فـ(كلمة سواء)، أي: مستوية، والكلمة المستوية هي الكلمة التي تستوي إليها نظرة الطرفين، فيرتضيها كل منهم، فكل طرف له كلمة تخصه، والكلمة السواء هي المشتركة بينهم. وتجوزا نقول: وسط، فالوسط هو المكان الذي يلتقي فيه الطرفان، فتستوي إليه المسافة من عند كل طرف.

فانبذ إليهم على سواء:

وكذلك قوله (فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)، أي: على طريقة مستوية، لا عوج فيها ولا ميل، يراها الطرفان بوضوح، ومعنى الآية: أعلمهم بانتهاء عهدهم، ويكون نبذ عهدهم واضحا بينا لهم معلنا، لا مواراة فيه، بحيث يكون واضحا لكلا الطرفين، ولا يكون الشيء واضحا تمام الوضوح لطرفين متقابلين إلا إذا كان مستويا بينهما، أي: تستوي النظرة إليه من كل طرف، فكأنه يضع نبذ العهد ﰲ

الوسط بينهما ليكون الطرف الآخر على بينة من الأمر. وكذلك القول في الآية الثالثة.

مكانا سوى:

ومن مجيئها صفة قوله تعالى: (فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى)، قال في لسان العرب: (تقول: هذا مكان سواء، أي: متوسط بين المكانين، ولكن لم يُقرأ إلا بالقصر: سِوًى وسُوًى). فجاء بمعنى: مستوٍ، وهو الوسط بين مكانين.

◆

٥/ مجيؤها مضافة

وقد أضيفت ﴿فِي﴾ القرآن الكريم إلى ثلاثة ألفاظ، وهي: (سَوَاءَ السَّبِيلِ) ﴿فِي﴾ ستة مواضع، و(سَوَاءِ الْجَحِيمِ) ﴿فِي﴾ موضعين، و(سَوَاءِ الصِّرَاطِ) ﴿فِي﴾ موضع. قال ابن الأثير ﴿فِي﴾ غريب الحديث: (وسَوَاءُ الشَّيء: وسَطُه؛ لاستواء المسافة إليه من الأطراف)، فالشيئان هنا مقدران، وهما طرفا الشيء، وكلاهما متباينان، ومقيسان إلى شيء آخر يباينهما، وهو الوسط، والوسط يمثل نقطة التقاء طرفين يتماثلان إلى تلك النقطة. فـ(سواء) لم يخرج عن دلالته (مستوٍ)، فالطرفان مستويان إلى الوسط.

سواء الجحيم:

وسواء الجحيم هي أصلها، حيث تخرج شجرة الزقوم (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)، (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ).

سواء السبيل:

وأما تركيب (سواء السبيل)، فتخرج الإضافة على تقدير (في)، كقوله: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، أي: مكر في الليل، وكذلك (سواء السبيل)، أي: سواءٌ في السبيل، كما تقول: وسط السبيل، أي: المنطقة الوسط فيه، فكأنك تقول: المنطقة السواء (المستوية) فيه.

وبذلك فهو يختلف عن القول: الصراط السوي، فالوصف هنا يلاحظ التباين بين الاستقامة والعوج، كما أسلفت.

سواء الصراط:

أما (سواء الصراط)، فيلحظ في الإضافة الوسط بين طرفيه.

◆

٦/ (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

قوله تعالى: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ).

تخريج العلماء للآية:

حيّر تخريج (سواء) أئمة التفسير واللغة، وقد قرأها الجمهور بالنصب، كما قرئت بالرفع والجر.

قال سيبويه في الكتاب: (هذا درهمٌ سواءً. كأنه قال هذا درهم استواءً. فهذا تمثيل وإن لم يتكلم به. قال عز وجل: "في أربعة أيامٍ سَواءً للسائلين". وقد قرأ ناسٌ: "في أربعةِ أيامٍ سواءٍ". قال الخليل: جعله بمنزلة مستويات. وتقول: هذا درهمٌ سواءٌ، كأنك قلت: هذا درهمٌ تام).

وقال الزجاج في معاني القرآن: (من خفضها جعلها صفة لأيام، أي: أربعة أيام مستويات، ومن نصب فعلى المصدر، أي: استوى استواء وسواء، ومن رفع فعل معنى: هي سواء. ومعنى للسائلين: معلق بقوله: (وقدر فيها أقواتها) لكل محتاج إلى القوت. ويجوز أن يكون للسائلين لمن سأل في كم خلقت السماوات والأرضون؛ فقيل: خلقت الأرض في أربعة أيام سواء لا زيادة فيها ولا نقصان جوابا لمن سأل).

وقال الرازي في مفاتيح الغيب: (ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء؟ فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة في أماكن خط الاستواء، وقد تكون مختلفة كالأيام

الموجودة في عامّة الأماكن، فبين تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة).

وفي البحر المحيط: (ثم قال في أربعة أيام سواء، دل على أن هذه الأيام مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ونقصان... وقال ابن زيد وجماعة: معناه مستو مهيأ أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر، فعبر بالسائلين عن الطالبين لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به، إذ هم بحال حاجة).

وقال الشوكاني في فتح القدير: (وانتصاب سواء على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام، أي: استوت سواء بمعنى استواء، ويجوز أن يكون منتصبا على الحال من الأرض، أو من الضمائر الراجعة إليها. قرأ الجمهور بنصب سواء وقرأ زيد بن علي، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، ويعقوب، وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة الأيام. وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف. قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة، وقوله: للسائلين: متعلق بسواء، أي: مستويات للسائلين، أو بمحذوف كأنه قيل: هذا الحصر للسائلين في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو متعلق بقدر، أي: قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها. قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام، واختار هذا ابن جرير).

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: (وسواء قرأه الجمهور بالنصب على الحال من أيام أي كاملة لا نقص فيها ولا زيادة. وقرأه

أبو جعفر مرفوعا على الابتداء بتقدير: هي سواء. وقرأه يعقوب مجرورا على الوصف لـ أيام. وللسائلين يتنازعه كل من أفعال: جعل وبارك وقدر فيكون للسائلين جمع سائل بمعنى الطالب للمعرفة، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، أي بينا ذلك للسائلين ويجوز أن يكون للسائلين متعلقا بفعل قدر فيها أقواتها فيكون المراد بالسائلين الطالبين للقوت).

نقد التخريجات السابقة:

تدور التخريجات السابقة على جعل (سواء) متعلقة بـ(أربعة أيام)، وصفا أو حالا أو مصدرا أو خبرا. فهي أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان.

غير أن القول بأن (سواء) مصدر: (استوى) فيه نظر، فلم يرد في استخدام العرب (سواء) بمعنى (استواء)، بل هي بمعنى اسم الفاعل: (مستوي). وعادة ما يطرد استخدام اسم الفاعل مع الفعل المضارع، ويطرد استخدام المصدر مع الفعل الأمر، فنحو: يقوم زيدٌ، [تقول: قائمٌ زيدٌ]، ونحو: اضرب زيدا، [تقول: ضرباً زيداً]. وهكذا، تقول: اختصم زيد وعمرو [أو: مختصمٌ زيد وعمرو، ولا تقول هنا: اختصام]، وذلك في اللازم أو المتعدي. ومن ثم فـ(سواء) تطرد مع (يستوي)، كما في الأمثلة السابقة، وهذا يدل على أنها اسم فاعل له، لا مصدر.

وأما القول بأنها صفة لأربعة أيام، والتقدير: مستوية، بمعنى: كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان، فلا وجه لهذا القول، و(سواء) في اللغة العربية لا تفيد معنى الكمال، وقد سبق بيان ذلك عند قوله

(آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)، والأيام توصف بالكمال أو التمام لا بالاستواء، كقوله: (تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)، وقوله: (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)، و(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ).

ولا تقاس على: مكان سواء [أي مستو]، فإن الاستواء في المكان يمكن تخيله إذا كان في وسطه، كما أسلفت بيانه. وقد ورد في العربية: سواء النهار، أي وسطه، فهو الوقت الزمني الذي تستوي ساعات النهار من أوله وآخره، وهو الوسط. كما جاء قولهم: ليلة السواء، وهي ليلة وسط الشهر، فيستوي عدد الأيام إليها من أول الشهر وآخره. ولا يتصور هذا المعنى في قوله: (أربعة أيام مستوية).

الوجه في تخريجها:

أما الوجه عندي فهو أن (سواء) لا علاقة لها بـ(أربعة أيام)، بل هي متعلقة بالآية السابقة، ففي الآية السابقة: (أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا) فالسؤال هنا إنكاري، وهو يخاطب المشركين منكرا عليهم أن يكفروا بالله وأن يجعلوا له أندادا، ثم قال (ذلك رب العالمين... في أربعة أيام)، فرب العالمين الذي خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام. وهنا انتهت الجملة، فهو يقول هذا رب العالمين، ثم استأنف فقال: (سواء للسائلين)، أي: أيكون رب

العالمين والأنداد سواءً، أي: مستوين، ذلك رب العالمين قد عرفتم شأنه، فماذا عن الأنداد، أيكونون سواءً؟! أو: أفهم سواءٌ؟!

وهذا التخريج يتسق مع معنى (سواء): مستوي، ومع استخدامها في القرآن الكريم، دون الحاجة إلى تكلف أو تأول. كما سبق في قوله (لَيْسُوا سَوَاءً)، وقوله (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً)، وقوله (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)، وقوله (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)، فـ(سواء) في كلها بمعنى: مستوين.

كما يتسق مع دلالة (سواء)، حيث تدل على استواء شيئين متباينين [إثباتا أو نفيا]، ففي الآية ينكر أن يعتقد الكافرون أن رب العالمين الذي خلق الأرض وخلق ما فيها، والأنداد التي جعلوها - سواء، فهم ليسوا سواء.

كما ينتظم مع سياق الآي، فموضوع الحديث جاء إنكارا لهؤلاء الكافرين أن يكفروا بالله ويسووا به الأنداد، كما قال (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، ثم ذكر أن الله هو الخالق الذي خلق الأرض، فماذا فعل الأنداد؟ أفهم سواء؟! ثم بعد ذلك بين أن رب العالمين استوى إلى السماء فسوى السماوات السبع، ثم قال: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً)، أي: فإن استمروا في إعراضهم وجعل الأنداد وتسويتهم برب العالمين فقل: أنذرتكم صاعقة.

وقوله (للسائلين): من السؤال بمعنى طلب المعرفة، وليس من السائل بمعنى المحتاج، أي: أفيكونون سواء للسائلين، والسائلون إما يقصد بهم الكافرون الذي يسألون عن الله، وعن أحقيته بالتوحيد، كما قال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ)؟ وكما قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا)، وسؤالهم سؤال إنكار وتعجب. وعلى هذا فيكون التقدير في حال النصب: أفيكونون سواءً للسائلين؟ وفي حال الرفع: أفهم سواءٌ، وفي حال الجر: أهم بمنزلةٍ سواءٍ؟!

وإما يكون المعنى عاما، فيقصد به أي سائل، كقوله: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)، أي: لمن يسأل عنهم. وهنا يكون التقدير نفيا، أي: ليسوا سواء للسائلين، فهو يقول: إذا كانوا سواء عند هؤلاء الكافرين فليسوا سواء للسائلين، الذين يريدون معرفة الحق ويؤمنون به. وعليه فالتقدير في حال النصب: فليسوا سواءً، أو: فما هم سواءً (كقوله: مَا هَذَا بَشَرًا)، وتقدير الرفع: فما هم سواءٌ [بإهمال ما وهي لهجة بني تميم]، وتقدير الجر: ما هم بسواءٍ، أو: ليسوا بسواءٍ. (كقوله: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)، و(كقوله: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ).

والله أعلى وأعلم.

◆

(٤) تركيب: [استوى إلى]

والاستخدام الثالث: (استوى إلى)، فهي متعدية بالحرف (إلى). وقد جاءت ﴿ موضعين (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، ﴿ سورة البقرة، وقوله: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) ﴿ سورة فصلت، فالله هو الذي استوى إلى السماء.

بالرجوع إلى الآيتين نجد ما يلي: يتحدث الله عن السماء والأرض التي خلقها، وخلق ما ﴿ الأرض، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها... فأتم الله خلقهن، ثم سوى الله السماوات السبع ﴿ يومين. فالسماء التي استوى إليها الله هي السماء الأولية التي خلقها قبل خلق السماوات، وآية فصلت تبين أنها كانت ﴿ مرحلة الدخان حين استوى الله إليها (وهي دخان)، أي حالة كونها دخانا، فأتم خلقها وخلق الأرض كما تبينه آية فصلت، ثم بعد ذلك سوى السماوات السبع من تلك السماء.

وقد فسر المفسرون الآية بالقصد والإقبال، وقال الراغب أي: بتدبيره، أي: أقبل إلى السماء بتدبيره.

ودلالة الاستواء عموما: هي الانتقال إلى حالة لاحقة مثالٍ من حالة سابقة مباينة. والمجيء بـ(إلى)، يحدد مدى الانتقال وقصده، تقول العرب: كان زيد مقبلا على زينب، ثم استوى إليّ فشتمني، أي: انتقل إقباله من زينب إليّ، كما يدل على أن إقباله على زينب يختلف عن إقباله علي، فحين أقبل علي شتمني، وهذا يدل على أنه كان ودودا مع زينب. فاستخدام الاستواء دل على التباين والانتقال، والمجيء بـ(إلى) دل على الانتهاء، أي انتهى بإقباله علي، ولم يقبل على أحد بعدي.

وهذا يشير إلى أن حالة السماء وهي دخان كانت حالة فاصلة بين مرحلتين، المرحلة الأولى: خلق السماوات والأرض وما فيهما، وكانتا رتقا، حتى فتقهما الله، ثم تحولت السماء إلى دخان، فاستوى الله إليها بأمره، ثم مرحلة تسوية السماء ودحو الأرض، ثم تسوية السماوات السبع.

فالانتقال كان من مرحلة الخلق (للسماء والأرض) إلى مرحلة التسوية، وكل ذلك بأمر الله، فالخلق العظيم كان للسماوات والأرض، (فطرهن)، وما تم بعد ذلك كان تقديرا وتسوية وإتماما، ولذلك نجد القرآن الكريم في الموطنين حين تحدث عن مراحل الخلق، لم يقل (خلق السماوات)، بل قال (فسواهن)، (فقضاهن)، فالخلق الذي هو الإنشاء الأول كان للسماوات والأرض، وأنشأ فيهما كل شيء، ثم بعد ذلك قصد بأمره إلى السماء وهي دخان، فأخذ ذلك الخلق مداه، فبنى السماء وسواها، ومد الأرض ودحاها... الخ.

وقد بينت في بحثي (السماء والسماوات في القرآن الكريم) هذا الأمر، وبسطت أدلته. والخلاصة أن مرحلة الرتق تم فيها الخلق، ثم مرحلة التسوية [وسأبين بعد قليل دلالة التسوية]. وقوله (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) دل على الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية التي تبدأ بالدخان. فالفعل في المرحلة الأولى هو الخلق، والفعل في المرحلة الثانية هو إتمام الخلق.

□

(٥) تركيب: [استوى على]

والاستخدام الرابع: (استوى على)، فهي متعدية بالحرف (على). وقد جاءت اثنتي عشرة مرة، سبع منها منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). وخمس منها هي: سفينة نوح: (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)، ونوح ومن آمن معه (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ)، والراكبون: (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)، وفي مثل الزرع: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

كما تبين لنا أن (استوى) تستخدم لتدل على انتقال إلى مرحلة لاحقة مباينة لمرحلة سابقة. فكذلك القول هنا:

استوت على الجودي:

(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)، الضمير يعود إلى السفينة بإجماع المفسرين، أي: استوت السفينة على الجودي، ولكن المعنى الدقيق، ليس: رست، بل يصف انتقال السفينة من حالة سابقة إلى حالة لاحقة مباينة، وهو وصف لحالة عجيبة، حالة الأرض وقد ملأها الماء، وغرق الكافرون فيها، ونجا المؤمنون في هذه السفينة بأمر ربهم، هذه الحالة انتهت بأمر الله (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فهي مرحلة مختلفة عن السابقة، مرحلة بلعت الأرض ماءها، وبدت تلك الأرض بعد أن كانت بحرا، فالسفينة لم ترسُ؛

لأن الرسو لا يكون إلا في الميناء أو أطراف اليابسة حذاء الماء، أما سفينة نوح فاستوت على الجودي، فالماء من حولها جف، وغيض الماء، فكانت مرحلة فارقة في حياة أهل السفينة.

كما أنها كانت مرحلة فارقة في حياة البشرية كلها، فاستواء السفينة على الجودي كان به هلاك الظالمين، ولم يبق إلا المؤمنون بربهم، ومن نسلهم جاءت البشرية، وانقرضت الأصول السابقة. فالحالة اللاحقة هي حالة مثال بالنسبة إلى الحالة السابقة، لا يستويان فيها.

فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك:

(فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك)، الخطاب لنوح ومن آمن، واستواؤهم على الفلك يفيد انتقالهم من مقام إلى آخر، الانتقال من السير على اليابسة إلى السير على الفلك في الماء، فهما حالتان متباينتان، والحالة الثانية كانت مثالا بالنسبة إلى نوح وصحبه؛ ففيها نجاتهم من الطوفان، ولذلك دعا ولده فقال: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ).

لتستووا على ظهوره:

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ)، أي: ظهور الفلك والأنعام، وعامّة ما يركبه الإنسان، ولا شك أن استواء الإنسان على ظهر مركوب يفيد انتقاله من حالة (المشي) إلى حالة (الركوب)، وهما حالتان مختلفتان، وحالة الركوب بالنسبة إلى الإنسان مثال لحالة المشي،

ولذلك امتن الله عليه بأن جعل له من الفلك والأنعام ما يركبه. فالفلك يجري به في الماء، والأنعام هذه المخلوقات العظيمة ذللها وسخرها للإنسان.

فاستوى على سوقه:

(فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)، الآية تتحدث عن مؤازرة الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتخبرنا أن هذا مثلهم في الإنجيل، (كزرع أخرج شطأه)، فهي تصف نوعاً من النباتات [من الفصيلة النجيلية]؛ فهي التي تخرج الأشطاء.

والمعنى: أن الزرع (أخرج شطأه)، الشطء: فرع يشبه الأصل تماما، حيث ينبت الزرع فتخرج ساقه الأصلية، ثم يخرج شطأ وراء شطء، (فآزره)، أي قواه، فحين يخرج الشطء (وهو الفرع) فإن الزرع الأصل يقويه، فيعتمد في غذائه عليه. (فاستغلظ)، أي أن الشطء أصبح قويا، وبدأ بالاستغلاظ، فيصبح أغلظ مما كان عليه.

وكل هذه المراحل تمثل النمو الأساسي لهذا الزرع، ولكن حتى الآن لم ينتقل الشطء الذي استغلظ إلى مرحلة بدوّ السنابل، وهي المرحلة الفارقة في حياة الزرع بالنسبة إلى المزارعين، قال (فاستوى على سوقه)، أي أن الشطء أصبح زرعا مستويا على سوقه، بدت عليه السنابل، وأصبح يعجب الزراع. فهي مرحلة النضج والاستواء، وقد تميزت عن مرحلة التكوين والنمو.

ثم استوى على العرش:

وردت ـ في ستة مواضع (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، وفي الموضع السابع: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). وبتدبر هذه المواضع السبعة يتبين ما يلي:

١. أغلبها جاء بعد بيان (خلق السماوات والأرض في ستة أيام)، ثم يعطف عليها حرف (ثم): (ثم استوى على العرش، فـ(استوى على العرش) بعد خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهي الأيام التي خلق الله فيها الخلق وسواه. وفي سورة الرعد (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، فدل على أن مرحلة رفع السماوات وتسويتها هي آخر المراحل في الخلق والتسوية، ثم استوى على العرش.

٢. ذكر اسمين من أسماء الله الحسنى مع قوله (ثم استوى على العرش)، وهما: الله [في الأعراف ويونس والرعد والسجدة]، والرحمن [في طه والفرقان]. وهذان هما الاسمان اللذان استخدمها مع الخلق، ولم يستخدم سواهما، (هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)، و(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ). كما أنهما الاسمان اللذان اقترن بهما الأمر بالسجود في القرآن الكريم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)، و(وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)... وهما الاسمان اللذان أضيفت إليهما الآيات (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)، و(يَسْمَعُ آيَاتِ اللّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ)... وهما الاسمان اللذان خير الله عباده في الدعاء بأحدهما: (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ

ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى). وهناك خصائص أخرى تجمعهما دون عامّة الأسماء الحسنى، سأتناولها في بحث آخر.

فالرحمن هو أصل الأشياء الذي تعود إليه كلها، واشتقاقه متصل بالرحم لا بالرحمة، ففي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه الترمذي: (قال الله عز وجل: أنا الرحمنُ، وأنا خلقتُ الرَّحِمَ، واشتققتُ لها من اسمي، فمن وصلها وَصَلْتُهُ، ومن قطعها بتَتّه)، واستخدامه في عامة الآي ليس في مقام الرحمة والعطف (كالرحيم)، بل في مقام الخلق والتدبير والألوهية والربوبية (كالله).

٣. في أغلب الآيات جاء بعد قوله (ثم استوى على العرش)، الحديث عن تدبير الأمر، (ألا له الخلق والأمر) في الأعراف، و(يدبر الأمر) في يونس والرعد، و(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) في السجدة. كما جاء الحديث عن بعض مظاهر التدبير، كإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وجريانها إلى أجل مسمى. كما جاء الحديث عن علمه بذات الصدور، وبما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وملكه ومعيته. كما تحدث عن خضوع كل خلقه له، فتحدث مرتين عن أنه ما من شفيع إلا بعد إذنه، ومالكم من دونه من ولي ولا شفيع. فهذه كلها مظاهر التدبير.

٤. في أغلب الآيات جاء الحديث في سياق ربوبية الله تعالى: (إن ربكم..) (فتبارك الله رب العالمين)، فهو يقول: إن ربكم هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، فهو خلق ولم يترك ما خلق، فكمال ربوبيته على خلقه أن يدبر الخلق (ألا له الخلق والأمر).

٥. في أربعة مواطن جاء عقب الحديث عن ذلك توجيه الناس إلى عبادته، فهو ربهم، وإلى دعائه تضرعا وخفية، وإلى السجود له، وإلى ولايته، وبين في الموطن الخامس أنه معهم أينما كانوا، وأنه عليم بذات صدوره. فتبين بذلك أن قيامه على خلقه، وهدايته لهم، هو من أمره الذي يدبر به الخلق.

فقوله (ثم استوى على العرش)، لفظ (استوى) يحمل دلالة مرحلتين متباينتين، يكون الانتقال من المرحلة السابقة إلى اللاحقة. فالآيات تبين هذا الانتقال، باستخدام حرف العطف (ثم)، وسياقها كما تقدم يبين أن ذلك مرتبط بحالة سابقة (وهي حالة خلق السماوات والأرض في ستة أيام)، وحالة لاحقة هي غير حالة الخلق، وهي حالة (تدبير الأمر)، كما جاء ذلك في سياق أغلب الآيات التي ذكرت (استوى على العرش)، فيعقبها: يدبر الأمر، أو: له الخلق والأمر. فهي مرحلة الأمر وتدبيره، ويؤكد ذلك ارتباطها بالاسمين العظيمين: الله والرحمن، وهما الاسمان الواردان في سياق الخلق والتدبير.

والملاحظ أن قوله (ثم استوى على العرش) ورد ست مرات في القرآن الكريم، والمرة السابعة قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، فاختلفت الصيغة، وهذا يبين ارتباط الدلالة بخلق السماوات والأرض في ستة أيام.

واللفظ في مختلف سياقاته يركز في الفعل لا في الذات، فالفعل هو: تدبير الأمر، وأن هذا التدبير بعد الخلق والتسوية، وبذلك نفهم قوله (ألا له الخلق والأمر). ونحن نهتم بما يهتم به القرآن الكريم، ولا نبحث عن أشياء لا تعنينا كبشر، وليس مرادا منا أن ندركها، فما الذي يعنينا الحديث عن ذاته سبحانه وتعالى والقول بأنه على العرش، والقرآن لم يقل ذلك بل: قال (استوى على العرش)، وجاء ذلك كله في سياقات واضحة ومكررة.

ومن ثم يمكن القول أن (استوى على العرش) هي المرحلة الثالثة الفاصلة في مسيرة السماوات والأرض وما فيهن. وذلك كالتالي:

المرحلة الأولى: مرحلة الخلق (خلق السماوات والأرض)، وفيها خلق الله السموات والأرض وما فيهن، فكانت السماوات والأرض رتقا. [وهذه في أربعة أيام]. وقد تحدثت عنها في بحثي (السماء والسماوات في القرآن الكريم).

المرحلة الثانية: مرحلة التسوية: وهي إتمام الخلق، فرفع السماء وسواها، ودحا الأرض وفرشها، ثم سوى السماوات السبع. وهذه المرحلة بدأت حين (استوى إلى السماء)، فاستوى إلى السماء وهي

دخان، ثم فتق الله الأرض والسماوات، ثم سوى السماء، ودحا الأرض، ثم سوى السماوات السبع. [وهذه في يومين، وبذلك تمت ستة أيام].

المرحلة الثالثة مرحلة التدبير: فبعد خلق السماوات والأرض استوى على العرش، يدبر الأمر.

والمرحلتان الثانية والثالثة، بدأهما بالحديث عن الاستواء، فأول المرحلة الثانية قال: (ثم استوى إلى السماء)، وأول المرحلة الثالثة قال: (ثم استوى على العرش). ولم ينسب فعل (استوى) إليه إلا في هذين الموضعين.

□

(٦) تركيب: [سوّى]

سوّى يسوي تسوية، وقد جاء الفعل (سوّى) ماضيا إحدى عشرة مرة، كلها أسند فيها إلى الله. مرة دون مفعول (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى)، وفي سبع آيات كان المفعول هو الإنسان: (سَوَّاكَ، سَوَّاهُ، سَوَّيْتُهُ، سَوَّاهَا)، وفي آية وقع على السماء (فَسَوَّاهَا)، وفي آية على السماوات السبع (فَسَوَّاهُنَّ)، وآية على الأرض: (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا).

وجاء مضارعا واقعا على مفعول فقط مرة واحدة أسند فيها إلى الله (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ).

وجاء مضارعا واقعا على مفعول، ومتعديا إلى الثاني بالحرف، مرة واحدة أسند فيها إلى المشركين (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

وجاء مضارعا مبنيا للمجهول مرة (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ).

فالخلاصة أن سوى له تركيبان، الأول: سويت الشيءَ، والثاني: سويتُ الشيءَ بالشيءِ (نحو: سويتُ فلاناً بفلان).

(سوى) فعل متعد، يقتضي أن يقع على مفعول به، بخلاف (استوى). وقد ذكرت أن لـ(س و ى) خصائص دلالية، وهي: وجود شيئين، أحدهما مقياس للآخر، كان بينهما تباين سابق. فـ(استوى) اقتضى انتقال الفاعل من الشيء السابق إلى الشيء اللاحق. أما

(سوى) فإنه يقتضي: نقل الشيء المقيس إلى مستوى الشيء المقيس عليه، ليستويا. فالفاعل يُلحق أحد الشيئين بالآخر. [وهذا في التركيب: سويت الشيءَ بالشيء]. وقد ينقل الشيء نفسَه من حالة سابقة إلى حالة لاحقة، فالفاعل ينقل الشيء من حالة مقيسة إلى مستوى آخر هو حالة مقيس عليها [وهذا في التركيب: سويت الشيءَ].

فمثلاً تقول: سويت العودَ فاستوى. فالعود كان بحالة اعوجاج، فهذه الحالة الأولى له، والحالة المقيس عليها هي حالة استقامته، ومن ثم قمت بنقله من حالة الاعوجاج إلى حالة الاستقامة.

ومثلاً: سويتُ زيدا بعمرو، أي جعلتهما مستويين، فهنا تم نقل زيد إلى مستوى عمرو، قد يكون النقل في الرفعة أو الضعة. وقد ألمح الراغب إلى أن تسوية الشيء (جعله سواء، إمّا في الرّفعة، أو في الضّعة).

□

أولا: تسوية الشيء [سوّى الشيءَ]

وهذه لم ترد إلا بمعنى التسوية التي تعقب الخلق (خلق فسوى)، وهذه أسندت إلى الله سبحانه وتعالى.

خلق فسوى:

(خلق فسوى)، التسوية تمثل المرحلة الثانية للخلق، فالخلق هو الإنشاء الأول للشيء، وهو المرحلة الأولى، ثم تأتي التسوية وهي المرحلة الثانية، فيتم الله فيها الخلق وفق المقاييس التي قدرها لخلق الشيء، وفي مرحلة التسوية يأخذ الخلق تمامه، وتميزه عما سواه، فهي مرحلة فاصلة في الشيء المخلوق.

ونجد أن القرآن الكريم يسمي هذا المقياس الذي يسوي الشيء المخلوق وفقا له: قَدَر، قال تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)، وقال: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، وقال: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ)، أي خلقناكم في أطوار إلى قدر معلوم محدد واضح، فتمت التسوية وفقا لهذا القدر، كما قال: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ). وقال: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)، أي: سوى وفق ما قدره سبحانه.

فتسوية الخلق: **إتمام الخلق وفقا لما قُدّر له أن يكون، بحيث يأخذ خصائصه التي تميزه عن غيره.** وبهذا نفهم عامة آيات التسوية.

(تسوية الإنسان)

تسوية الإنسان: إتمام خلقه وفقا لما قدر له أن يكون، فيكون إنسانا متميزا عن عامة الخلق.

وبالنظر في الآيات التي تحدثت عن تسوية الإنسان، نجد أنها تنقسم ثلاث مجموعات:

الأولى: ثلاث آيات جاءت في سياق الحديث عن مراحل خلق البشر، وفي اثنتين منها يخاطب الله ملائكته بذلك، وهي قوله: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) في الحجر، وقوله: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) في ص، وقوله: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ).

الثانية: ثلاث آيات، آية منها جاءت على لسان أحد المؤمنين يذكر كافرا بربه: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) في سورة الكهف. وآيتان في سياق الإنكار على غرور الإنسان وإساءة ظنه بربه: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) في سورة الانفطار، و(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ

كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) في سورة القيامة.

وفي الآيات الست كلها ذكرت التسوية عقب الخلق.

والثالثة: آية سورة الشمس، وتتحدث عن تسوية النفس: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا).

وبتدبر هذه الآيات نجد أنها تتحدث عن ثلاث متعلّقات للتسوية، وهي: نفخ الروح، وتسوية الصورة، وتسوية النفس.

أ/ نفخ الروح:

آيات المجموعة الأولى: نفخ الروح

اقترنت التسوية فيها بالنفخ في الإنسان من روح الله، وجاءت بحرف العطف (الواو): (سواه ونفخ فيه من روحه). وهذه التسوية كانت لأبينا آدم، أي للإنسان الأول، الذي هو أصل البشر، وقد استخدم لفظ (بشرا) في آيتين منها، وفي الثالثة لفظ (الإنسان) مع بيان بدء خلقه (بدأ خلق الإنسان). فسوى الله آدم، ونفخ فيه من روحه، فأصبح إنسانا حيا، بنفخة الله.

وكما كانت نفخة الروح هي أول تسوية آدم، فكذلك تسوية الإنسان تبدأ بنفخ الروح فيه، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل

الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد).

وآية السجدة (الذي أحسن كل شيء خلقه)، أتت في سياق إحسان الله في خلق كل شيء، وإحسانه يقوم على تسوية كل مخلوق تسوية خاصة به، تميزه عن غيره من المخلوقات، ثم جاء الحديث عن تسوية الإنسان، وقرنها بنفخ الروح، وجعل السمع والأبصار والأفئدة، وهذا ما يميز الإنسان عن غيره، كما بينت عند حديثي عن (الفطرة) (انظر بحث: من أفعال الخلق في القرآن الكريم).

ففِطرة الله ينشئها الله في الإنسان عقب نفخ الروح، كما بينت آية السجدة، وهذه الفطرة هي الأمانة التي حملها الإنسان: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)، فالأمانة هي شيء استودع عليه الإنسان، والله سبحانه وتعالى يذكر أن الإنسان هو من حمل الأمانة، فلم يحملها مخلوق سواه.

ولا يصح حمل الأمانة على العبادة أو الطاعة أو التكليف؛ لأن الله سبحانه وتعالى بين لنا أن الجن أيضا مكلفون (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)، وغير ذلك من الآيات، فتبين لنا أن الأمانة شيء آخر غير التكليف. وسر إدراك ذلك بفهم التسوية ونفخ الروح، وجعل السمع والأبصار والأفئدة، وتهيئته لخلافة الأرض، كما

أوضحت هذا سابقاً. وهذه لم تكن لأحد من الخلق سواه، فهي الأمانة التي حملها.

ب/ تسوية الصورة:

آيات المجموعة الثانية: تسوية الصورة

آية الكهف تبين أن التسوية مرحلة لاحقة (ثم)، ولم تحدد زمنها، وإنما بينت نتيجة من نتائجها، وهي الرجولة (رجلا)، وهي إشارة إلى جنسه حيث أصبح رجلا، ولم يصبح امرأة، وهذا يدل على صلة جنس الجنين بالتسوية.

وآية الانفطار بينت أن التسوية عقب الخلق (فـ)، ويعقبها عدل الإنسان ليكون في الصورة التي تميزه عن عامّة الخلق، فهي متصلة بهذه الحالة، حيث إن التسوية تتعلق بالهيئة والصورة التي تحدد تركيب الإنسان.

وآية القيامة تبين أن التسوية تعقب الخلق، وهو الخلق الذي يعقب طور العلقة، وكما نعلم فالمضغة هي التي تعقب طور العلقة، ومن ثم فالخلق المراد به (خلق المضغة)، وتسوية الإنسان تعقب هذا الطور، وتحديد جنس الجنين (ذكرا أم أنثى) عقب هذه التسوية.

فهذه الآيات الثلاث تتحدث عن تسوية الصورة، بحيث يتميز الإنسان بصورته عما عداه من المخلوقات، وفي ذلك تعديل لخلقه وتصوير له. وهذه التسوية تكون عقب النفخ في الروح.

ج/ تسوية النفس:

آية المجموعة الثالثة: تسوية النفس

قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، أي أن الله يسوي كل نفس تسوية تخصها، وفي التسوية يلهمها فجورها وتقواها، فالتسوية تكون بنفخ الروح فيها، وحين ينفخ الروح فيها تلهم الفجور والتقوى، وتمنح إرادة الاختيار والمشيئة، وبعد ذلك يختار الإنسان أن يكون شقيا أو سعيدا. وإلهام الفجور والتقوى له آثار مصيرية في حياة الإنسان، يمكنه من الحصول على المدركات الأساسية، وهذا قوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)، فهو هداية لكل مخلوق وفق ما سواه، والله سوى الإنسان ليكون إنسانا له خصائص مميزة، وهدايته يتعلق بتلك الخصائص. قال أبو السعود في تفسير الآية: (أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالاتها).

وإلهام الفجور والتقوى يعني أن كل نفس تبرمج برمجة ذاتية على إدراك الفجور والتقوى، وهذا قوله: (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)، فهو بصيرة على نفسه؛ إذ هي ملهمة فجورها وتقواها، فلا يكون لها عذرا.

وهذا يرجح أن المراد بالنفس هنا: نفس الإنسان، يسويها الله فيلهمها فجورها وتقواها. ونكرها للعموم، أي: كل نفس، فكل نفس سواها الله تسوية تخصها.

ويؤكد الاستدلال السابق في المواطن الثلاثة، الحديث الذي في صحيح مسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد).

خلاصة آيات تسوية الإنسان:

خلاصة آيات تسوية الإنسان، أنها حددت مفهومها، وزمن بدئها، وطبيعتها، ومراحلها.

فتسوية الإنسان: إتمام خلقه صورة ونفساً ليكون إنسانا، وتبدأ بنفخ الروح، بعد طور المضغة، ويعقب ذلك تحديد جنس الجنين (ذكرا أو أنثى)، ومن ثم فيكون الجنين إنسانا حين يسويه الله وينفخ فيه من روحه، وينمو الجنين في صورة إنسان متميز عن غيره من المخلوقات.

ويتبين أن تسوية الإنسان تتعلق بثلاثة أمور:

الأول: نفخ الروح فيه، [وهي الواردة في: السجدة والحجر و ص]، وهي أول مراحل التسوية، وترتبط أيضا بجعل السمع والأبصار والأفئدة، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما بينت سابقا، [وهي الواردة في: السجدة]. فهذه عامة للناس جميعا.

والثاني: تسوية الصورة، حيث يسوي صورة الإنسان وهيئته التي تميزه عن صور المخلوقات الأخرى، كما تميز صورة كل إنسان عن غيره من الناس. [وهي الواردة في: الكهف والانفطار والقيامة].

والثالث: تسوية النفس، حيث يسوي كل نفس بإلهامها فجورها وتقواها، فهذه التسوية تميز كل نفس عمن سواها من البشر [وهي الواردة في سورة الشمس].

ومن جهة ثانية فإن تسوية الإنسان تتعلق به بالنظر إلى جنسه، وبالنظر إلى فرده، فمن حيث جنس الإنسان، فالله سوى الإنسان وخصه بخصائص تميزه عن كل المخلوقات الأخرى، بالفِطرة، وتسوية صورته، وتسوية نفسه. ومن حيث الفرد فالله سوى كل إنسان وميزه عن عامّة الناس، وذلك بتسوية صورته وبتسوية نفسه.

▱

(نسوي بنانه)

قوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)، وقع فعل التسوية على بنان الإنسان، والبنان (ج: بنانة): أطراف الأصابع، وقيل تطلق على الأصابع. فاستدلت الآية على تسوية العظام بتسوية البنان، وهذا يدل على أن تسوية البنان أكبر من تسوية العظام، فالقرآن يستدل بالقدرة على الأكبر ليدل على ما هو دونه، كما قال: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

وتسوية البنان يتعلق بتسوية الصورة، أي إتمام خلقها وفقا لما قدر الله لها أن تكون بنانا، ذات خصائص تميزها عن غيرها. ولا تكون التسوية إلا بعد الخلق، أي فهو قادر على أن يسوي البنان فيعدل خلقتها، ويعيدها في صورتها. فمن باب أولى أنه قادر على إعادة خلق الجسد كله.

والمتتبع لآي القرآن الكريم يجد أن فعل التسوية المتعلق بالإنسان لم يقع إلا على الإنسان كله، كما سبقت الأمثلة، ووقع على النفس، ولم يقع على عضو من الأعضاء إلا على البنان، وكان دليلا على القدرة، وفي هذا دلالة بينة على أن تسوية البنان ذات خصائص معجزة باهرة، تميز كل إنسان عن غيره، بل تميز كل أصبع عما سواها.

وقد أصبحت (بصمات الأصابع) في عصرنا إحدى أهم الأدوات في التحقق من هوية الإنسان وتوثيقها؛ إذ لا تتشابه بصمات فردين أبدا، وعلى حد تعبير بعض العلماء فإن هوية الناس مشفرة في بنانهم (بصمات أطراف أصابعهم).

يقول علماء بصمات الأصابع، أن بصمة الأصبع تتكون من خطوط (نتوءات) بارزة في بشرة الجلد، تجاورها منخفضات، وتتشكل هذه الخطوط وتنحني وتتفرع عنها فروع لتأخذ شكلا مميزا يميز كل شخص عن غيره. والله يسوي البنان للإنسان وهو جنين، وتظل بصمته ثابتة لا تتغير حتى يتحلل جسده بعد الموت.

وجاء في الموسوعة العربية العالمية: (ويصنف خبراء البصمات البصمات وفقًا لِصيغ التصنيف، وترتكز معظم هذه الصيغ على شكل البصمة، وعلى عدد الخطوط بين نقاط معينة في نطاق الأشكال. وتوجد أربعة أنواع رئيسية لأشكال البصمات: شكل العروة وهو أكثر الأنواع شيوعًا، وفيه تبدأ الخطوط من جوانب الأصبع وتنحني إلى الخلف بشكل حاد، وتنتهي على نفس الجانب. وفي الشكل الحلزوني، تكون الخطوط على شكل دائري. وفي شكل القوس، تمتد الخطوط من أحد جانبي الإصبع إلى الآخر مرتفعة في منطقة الوسط. أما الشكل العشوائي، فليس له شكل محدد، إذ يوجد فيه كثير من أشكال العُرَى المجمَّعة والأشكال الحلزونية والأقواس).

(تسوية السماء)

قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).

تسوية السماء: إتمام خلقها وفقا لما قُدّر لها أن تكون، بحيث تأخذ خصائصها التي تميزها عن غيرها. وتسوية السماء هي المرحلة الثانية للخلق، حيث خلق الله السماوات والأرض فكانتا رتقا، ثم فتقهما الله، وعندئذ استوى إلى السماء وهي دخان، فسواها، حيث أتم خلقها، وفي هذه المرحلة تميزت عن الأرض، وأخذت خصائصها، فبناها، ورفع سمكها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها... الخ. وهي خصائص مميزة لها عن غيرها، وتجد الأفعال المستخدمة معها مختلفة عن تلك المستخدمة مع الأرض (دحاها، طحاها، فرشها...). وبعد اكتمال مرحلة تسوية السماء بدأ دحو الأرض (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا).

والمقصود بالسماء: السماء الأولية التي كانت قبل أن يسويها الله سبع سماوات. [انظر بحثي: السماء والسماوات في القرآن الكريم].

◆

(تسوية السماوات السبع)

قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) في سورة البقرة، وقال: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) في سورة فصلت.

تسوية السماوات: إتمام خلقها وفقا لما قُدّر لها أن تكون، بحيث تأخذ خصائصها التي تميزها عن غيرها. وكما تبين آيات القرآن الكريم أن الله خلق السماوات والأرض بادئ الأمر (في مرحلة الخلق)، فكانتا رتقا، وفي أول مرحلة التسوية فتق الله السماوات والأرض، فانفصلت الأرض، وظلت السماوات في رحم السماء الأولية، ثم سوى الله السماء الأولية، وبعد ذلك دحا الأرض، ثم سوى السماوات السبع، فاستقلت كل سماء عن الأخرى، وأصبحت السماء التي تحيط بالأرض هي السماء الدنيا.

فتسوية السماوات السبع، هو إتمام لخلقهن، بحيث تمايزت السماء الأولية إلى سبع سماوات، أدناهن السماء الدنيا، فبناهن الله (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)، فلا فروج فيهن ولا فطور: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ)، ورفعهن بغير عمد مرئية: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ

السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، وجعلهن طباقا، أي: متطابقة بعضها فوق بعض، كل سماء تحيط بالتي تحتها، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا).

وكما تبين آية فصلت، فإن اللّه سواهن سبع سماوات، وأوحى في كل سماء (أمرها)، وإضافة (أمر) إلى كل سماء يفيد تخصيصها بأمر يختلف عن غيرها، ثم ذكر لنا ما يخص السماء الدنيا، فقال: (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)، فهذه الزينة من الأمر الذي يخص السماء الدنيا، فحيث ذكرت الزينة اقترنت بالسماء الدنيا.

وكانت تسوية السماوات السبع هي الجزء الأخير في مرحلة التسوية، وهي الجزء الأخير في الأيام الستة. ثم بعد ذلك كما قال تعالى: (ثم استوى على العرش)، فدخل الخلق في مرحلة التدبير.

□

ثانيا: تسوية الشيء بالشيء

جاءت في موضعين: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، وقوله: (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ).

إذ نسويكم برب العالمين:

جاءت في موضعين، الأول قول قوم إبراهيم حين يأخذهم الندم يوم الدين، مخاطبين أصنامهم التي كانوا ينحتون: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، أي نجعلكم مستوين مع رب العالمين، فالمشركون نقلوا أكابرهم من مستواهم البشري إلى مستوى الألوهية، فجعلوهم متماثلين مع رب العالمين، والتماثل منحهم حق الألوهية فعبدوهم، أو جعلوهم شركاء.

قال ابن عاشور: (أي: إذ نجعلكم مثل رب العالمين، فالظاهر أنهم جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية وهو ظاهر حال إشراكهم، ويحتمل أنهم جعلوه مثله فيما تبين لهم من إلهيته يومئذ إذ كانوا لا يؤمنون بالله أصلا في الدنيا فهي تسوية بالمثال وقد آبوا إلى الاعتراف بما تضمنته كلمة إبراهيم لهم في الدنيا إذ قال لهم: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}).

◆

لو تسوى بهم الأرض:

وجاء في قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ). التركيب الشائع في التسوية أن يكون الشيء المقيس أولاً والشيء المقيس عليه ثانياً بعد الباء، فتقول: سويت زيدا بعمرو، فعمرو هو المقيس عليه، وفي قوله: (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فهم قاسوا أصنامهم وجعلوها مستوية مع رب العالمين. وعلى ذلك يقال: سويتُه بالأرض، إذا جعلته مستوياً مع الأرض، فالأرض هي المقيس عليه. وأما في الآية فقد جاء التركيب عكس ذلك (تسوى بهم الأرض)، كأنْ تقول: سويتُ الأرض به، فهو المقيس عليه، والمعنى: أنك تجعل الأرض مساوية له.

وبالرجوع إلى كتب التفسير نجد أنهم يفسرون التركيب الأول بدلالة التركيب الثاني، فيقولون – كما في الطبري وغيره: (المعنى: لو سوّاهم الله والأرض، فصاروا ترابًا مثلها بتصييره إياهم.. كقوله {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا})، وهذا يستقيم لو قال: يُسَوَّون بالأرض.

وقال الزمخشري: (لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى. وقيل: يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء. وقيل: تصير البهائم ترابا، فيودون حالها).

وقال ابن عطية: (واختلف فيه، فقالت فرقة: تنشق الأرض فيحصلون فيها ثم تتسوى هي في نفسها عليهم وبهم. وقالت فرقة: معناه لو تستوي هي معهم في أن يكونوا ترابا كآبائهم، فجاء اللفظ

على أن الأرض هي المستوية معهم، والمعنى إنما هو أنهم يستوون مع الأرض، ففي اللفظ قلب يخرج على نحو اللغة التي حكاها سيبويه، أدخلت القلنسوة في رأسي وأدخلت فمي في الحجر، وما جرى مجراه)، وافتراض القلب لا مسوغ له.

وقال ابن كثير: (أي: لو انشقت وبلعتهم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: {وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} .

وقال البقاعي: (أي تكون مستوية معتدلة بهم، ولا تكون كذلك إلا وقد غيبتهم واستوت بهم، لم يبق فيها شيء من عوج ولا نتوّ بسبب أحد منهم ولا شيء من أجسامهم؛ وإنما ودوا ذلك خوفاً مما يستقبلهم من الفضيحة بعتابهم ثم الإهانة بعقابهم)،

وزاد فتح القدير قولا: (وقيل: الباء في قوله: بهم بمعنى على، أي: تسوى عليهم الأرض).

❖ ❖

وأما ابن عاشور في التحرير والتنوير فقد نقل تفسير الجمهور، ثم جاء بقول وجيه، قال: (والأظهر عندي: أن المعنى التسوية في البروز والظهور، أي أن ترتفع الأرض فتسوى في الارتفاع بأجسادهم، فلا يظهروا، وذلك كناية عن شدة خوفهم وذلهم، فينقبضون ويتضاءلون حتى يودوا أن يصيروا غير ظاهرين على الأرض، كما وصف أحد الأعراب يهجو قوما من طيء، أنشده المبرد في الكامل:

إذا ما قيل أيُّهمُ لأيٍّ ... تشابهتِ المناكبُ والرؤوسُ

وهذا أحسن في معنى الآية وأنسب بالكناية).

وهذا القول هو الأنسب معنىً وكنايةً، وتركيباً أيضاً.

فالمعنى: لو ترتفع الأرض حتى تسوى بهم، فتغطيهم، فهم من شدة خوفهم تجمدت الحركة لديهم، فلم يعودوا قادرين على الحركة، ولا حتى الاختفاء في الأرض، ويتمنون حينئذ أن تتحرك الأرض فترتفع وتخفيهم، وهم على حالهم. وهذا تصوير بديع لنفوس الكافرين في ذلك الموقف، وفزعها من شدة هوله.

◆

فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها:

وأما قوله تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا).

فالسؤال في هذا المقام: إلى أين يعود الضمير في قوله (فسواها)؟

قال الطبري: (فسوّى الدمدمة عليهم جميعهم، فلم يُفْلِت منهم أحد)، وقال الفراء: (فسوى بينهم العقوبة، فلم يبق منهم أحداً)، وقال الزمخشري بعد ذكر القول الأول: (ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى: فسواها بالأرض. أو في الهلاك). وقال ابن عطية: (فسوى القبيلة في الهلاك لم ينج منهم أحد)، وقد جمعها الشوكاني فقال: (والضمير في «فسواها» يعود إلى الدمدمة، أي: فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، وقيل: يعود إلى الأرض، أي: فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب، وقيل: يعود إلى الأمة، أي: ثمود. قال الفراء: سوى الأمة: أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم).

والذي يترجح لدي أن الضمير عائد على (ثمود)، ولكن ليس على تقدير: سوى بينهم في الهلاك، ولكن على التقدير الذي ذكره الزمخشري أولاً: سوّى ثمود بالأرض، فهو التركيب المستخدم في هذا السياق: سواه بالأرض، ولم يذكر (بالأرض) لدلالة المقام عليه. ولا مسوغ للقول: سوى بينهم في الهلاك، فالاشتقاق الشائع الاستخدام مع (بين) عادة هو: ساوى، وليس: سوى، كما أن تقدير: (سوى القبيلة في الهلاك) ضعيف.

وقد جاء الاستخدام هنا وفق التركيب: سواهم بالأرض، وفي الآية السابقة: سوى الأرض بهم؛ فالآية السابقة تتحدث عن أمنية الكافرين يومئذ، وحالتهم النفسية في أن تصبح الأرض مساوية لهم فتبتلعهم أو تخفيهم وهم واقفون، فهو تصوير رائع وبديع لحالة الخوف والفزع الرهيب الذي اعتراهم، وانعدام الزمن عندهم لدرجة أنهم لا يتمنون أن يدفنوا ويسوون بالأرض، فذلك وقت طويل، لا يطيقون انتظاره، بل الأرض تبرز فجأة وسريعا لتبتلعهم وهم واقفون.

أما الآية التي في سورة الشمس، فهي تتحدث عن حالة وقعت في الدنيا، فكان الأنسب القول: أن الله سوى القبيلة بالأرض، حيث أهلكتهم الصيحة فسوتهم بالأرض، فأصبحوا جاثمين، كما قال: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، وقد وصفهم بالجثوم في ثلاثة مواطن، وقال: (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)، فهي حالة الجثوم التي سوتهم بالأرض فما قاموا بعدها. فكأنها جمدتهم فما استطاعوا من قيام، وقد كانوا مستطيعين.

ولم يَرِدْ وصف قوم بالجثوم إلا ثمود (قوم صالح) ومدين (قوم شعيب)، وكلاهما أخذتهم الرجفة، وقد جمع الله بينهما فقال: (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)، وهذا يدل على أن الصيحة التي أخذتهم لها ميزة تخصها في أنها تُجْثم الهلكى فتسويهم بالأرض.

□

(٧) تركيب: [ساوى]

ورد مرة في قوله تعالى: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا)، مسندا إلى ذي القرنين.

حتى إذا ساوى بين الصدفين:

يقال: ساوى بين الشيئين مساواة، قال الراغب: (الْمُسَاوَاةُ: المعادلة المعتبرة بالذّرع والوزن، والكيل.. وقد يعتبر بالكيفية). وفي لسان العرب: (يقال: ساويت هذا بذاك إذا رفعته حتى بلغ قدره ومبلغه. وقوله (ساوى بين الصدفين)، أي: سوى بينهما حين رفع السد بينهما. ويقال: ساوى الشيءُ الشيءَ إذا عادله. وساويت بين الشيئين إذا عدلت بينهما وسويت.).

ودلالة المساواة لا تخرج عن الدلالة العامة للجذر، فثمة شيئان بينهما تباين، والفاعل يريد إلغاء هذا التباين، وفقا لمقياس ما، قد يكون المقياس أحد الشيئين، وقد يكون المقياس غيرهما، فيعدلهما وفقا له. وهذا المعنى في الآية، فذو القرنين تخير جبلين يمثلان مضيقا بين القومين ليجعل بينهم سدا. فأخذ زبر الحديد (قطع الحديد)، فملأ بها ما بين الصدفين، حتى ساوى بينهما، أي: جعل حافتيهما متماثلة في مقدار الارتفاع. فالصدفان كانا متباينين، وقد ساوى بينهما حين ردم الفجوة التي بينهما، فأصبحا كأنهما خطا واحدا، وليسا قمتين مختلفتين.